كفاحية عليا، شكّلت، على الدوام، مهماز الوعي الثوري والالتزام القومي النظيف، عند كمال جنبلاط. لهذا كان يعاودُها دائماً، كأنه عالمٌ من علماء الأسباب، منهجه في السياسة كمنهج أي عقلاني يربط العلّة بمعلولها (كما تكون، تفكر. وكما تفكرّ، تتصرَّف)؛ والمهم عنده أمران متلازمان: أولهما، كيف وعى الفلسطينيون قضيَّتهم، وما هو الإطار الصالح لترقية هذا الوعي الوطني بالممارسة الثورية؟ وثانيهما، كيف تعامل العرب مع القضية الفلسطينية،وإلى أي حدٍ ستكون، على مدى طويلٍ معياراً لكفاحيتهم وتحرريّتهم، ومرتكزاً أساسياً من مرتكزات توحّدهم أو تضامنهم؟

وهاتان المسألتان تعيدان الجدلية الجنبلاطية إلى مضمونها التقدمي، القائم على اعتبار الجدلّية منهجاً يساعد على استشفاف الواقع تبسيطاً وتوضيحاً، فيسهل على الجماهير وعيه والنضال، لتغييره بما يتناسب مع أهدافها ومصالحها. ولهذا يعاود تعداد الأسباب الظاهرة للكارثة الفلسطينية، منتقلاً من الأبسط الأعم إلى الأعمق الأخص. فيلاحظ، أولاً: «ان كثرة الكلام وقلة الاعداد والاستعداد»، هي السبب الظاهر للنكبة، يليه مباشرة: «استيطان المؤامرات من جانب العرب على بعضهم البعض»، وهذا **الاستيطان التآمري** سببُه، في المنظور الجنبلاطي اختلافُ الأهداف، من جهة، وانعدام وحدة التضامن أو وحدة الموقف من جهة أخرى. وهو يعزو سبب هذه المأساة الفلسطينية المستمرة، حتى نشوء الثورة في ١٩٦٥/١/١، إلى «عدم وجود قيادة عربية مشتركة وموحِّدة للتحرك العام. فكل واحد منهم تقريباً يُجري المعركة لحسابه ولمصلحته، دون أن ينظر، إلى المصلحة العربية العامة أو إلى مصلحة الآخرين، أو ينسجم معهم على الأقل، في تصميم المعركة وتنفيذها». ويضيف كمال جنبلاط سبباً خطيراً، مضافاً إلى الوضع العسكري المركَّب فوق أرض التقسيم، عام ١٩٤٧، هو: «عدم اعتبار الجبهة اللبنانية جبهة أساسية في فك الكماشة، لأجل عزل الصهاينة عن البحر وقطع صلتهم بالعتاد وبالمدد الوارد إليهم. تماماً كما فعل صلاح الدين الأيوبي، فيما قبل، يوم واجه الصليبيين». ويأخذ كمال جنبلاط على القادة العرب منهجهم السياسي. فيصفهم بأنهم: «يعالجون القضايا الدولية بروحية عثمانية ازدواجية إنهزامية متأخرة». ويأخذ عليهم أنهم لم يجمعوا بين النضال العسكري السياسي، والنضال الاقتصادي عامة، والنفطي خاصة، بل سعى بعضهم بعيداً، وراء مصالحه الاقليمية التقسيمية المتساوقة مع سياسة الاستعمار العالمي، ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ويحذّر كمال جنبلاط، العرب عموماً والفلسطينيين خصوصاً، من البكاء على أطلال النكبة، والانحباس في قفص الشعور بالذنب الوطني أو التقصير، داعياً إياهم إلى امرين حاسمين، في الفصل الاستراتيجي بين العرب وأعدائهم:

الأول، «وحدة التصميم والتخطيط والهدف، على نطاقٍ قومي دُولي واسع، أي بتحقيق الوحدة العربية، أو الاتحاد الفدرالي العربي بين بعض الدول العربية على الأقل...».

أما الثاني، فهو: «انتهاج الاشتراكية، نهجاً وتأسيساً، في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي».